

وقعة بدر النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحي

ظل النبي ﷺ مرتقبا عَوْد تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها ، فندب صحابته للخروج معه إليها ، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، وهو عدد يكفى لما هو بسبيله ، فاكفى بهم ، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يعتقبونها ، منها فرسان وسبعون بعيرا .

فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله ﷺ للاستيلاء على أموالهم ، وكان قائدا لحامية القافلة ، أرسل إلى قريش رسولا يعلمهم بالخير ، واتبع هو طريقا غير طريق القوافل ، رجاء أن يفلت ممن يترصدونه . وتسارعت رجالات قريش إلى نجده فخرجوا تحت قيادة كبرائهم فى تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير . ولم يعلم رسول الله ﷺ بكل هذا ، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعرفان له الأخبار ، ثم سار حتى بلغ الرُّوحاء ، وهى على بعد نحو أربعين ميلا من الجنوب الغربى للمدينة ، وهنالك جاءه الخبر بأن قريشا قد هبت تدافع عن أموالها ، وأن تجارة قريش تمر من بدر غدا أو بعد غد . فاستدعى النبي ﷺ كبراء جنوده وأخبرهم بأن الله أوحى إليه ووعدده إحدى الطائفتين : قافلة التجارة ، أو جيش قريش ، فبين أن رأى الغالب يميل إلى الاستيلاء على القافلة ، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال ، ليأخذوا له عدته ، فأنزل الله فى ذلك قرآنا يعاتبهم وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ (١) ، أى أنكم طلبتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم .

عند ذاك قام المقداد بن الأسود وتكلم ، وكان مما قاله : « يا رسول الله

امض لما أمرك الله ، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير . ثم التفت إلى رجاله وقال : أشيروا علي أيها الناس ، وهو يريد أهل المدينة ، لأن البيعة التي أخذها عليهم قد يفهم منها أنه لا نجب عليهم نصرته إلا ما دام مدافعا وهو بين أظهرهم .

فقال له سعد بن معاذ سيد بنى الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل .

فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضته معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا ؛ إنا لنصير عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسير على بركة الله » .

فأشرق وجه النبي ﷺ لهذا الكلام ومسر به . وعند ذلك التفت إلى أصحابه وقال : « أبشروا والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أبا سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ، وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذي سار لخالصها أنه لا حاجة إلى الحرب فقد أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرجع حتى نصل إلى بدر ونقيم بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيها بوننا أبد الدهر .

فلم يرق هذا الرأي إلا أنحس بن شريق الثقفي فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا . وسار جيش قريش حتى وصلوا إلى وادي بدر فترلوا شاطئه الأقصى في أرض سهلة .

فلما بلغ النبي ﷺ ذلك ، سار حتى نزل من وادي بدر عند شاطئه الأدنى

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب . ويطلق ويراد به أقصى المعمورة .

بعيدا عن الماء في أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تشبث عزائمهم وهم قريبو عهد الإسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر ميثرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشربوا واتخذوا الحياض ، وملأوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التي تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث ويلا على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال . وقد أشار الله إلى هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ، وَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١) .

ثم سار النبي ﷺ على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له الحُباب بن المنذر الأنصاري وكان مشهوراً بأصالة الرأي : يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله : بل هذا هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال الحُباب : يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائة وكثرته ، فتنزله ونغور ما عدها من الآبار ، ثم بنى عليه حوضا فملاؤه ماء فشرب ولا يشربون .

فقال له النبي ﷺ : لقد أشرت بالرأى . وانهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغُورت ، وبنى حوضا على البئر التي نزلوا إليها .

وبعد ذلك بُنى له عريش (٢) فوق تل ليشرف منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوم صفوفهم ، وجعل مناكبهم متلاصقة كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر إلى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُكَ وتكذبُ رسولك ، اللهم فتصرك الذى وعدتني به » . ثم نظر إلى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات في مجالدة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم » .

(١) سورة الأنفال ، الآية (١١) .

(٢) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش للكرم . وشبه الخيمة من خشب وغمام

جميعه عرش بضمين .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبي ﷺ لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى آمركم ، وإن اكنتم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ثم قال ﷺ : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلًا فله مثله » .

وأمر النبي بالحملة على المشركين ، فما هي إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وخارت قواهم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أفضى بهم التراجع إلى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى وجدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البختري بن هشام ، والجراح والد أبي عبيدة ، وأمية بن خلف وابنه علي ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وأبو جهل ابن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصي ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعُدَّ الأسرى فكانوا سبعين رجلا أمر النبي ﷺ أن يقتل منهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشدَّ خصوم المسلمين ، والمؤلّين عليهم ، والمستهزئين بهم .

ثم أمر ﷺ أن يدفن قتلى المشركين في قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب إلى شفة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنكم كنتم أطعمتم الله ورسوله ، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

فقال له رسول الله : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وكان عدد من قتل من المسلمين في وقعة بدر أربعة عشر رجلا .

الخلاف على مصير أسرى بدر :

استشار النبي ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، محتجا بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم إلى الضلالة ؛ ووافقهم سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا له عضدا .

فمال النبي ﷺ إلى رأى أبي بكر ، فكان منهم من يفتدى نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك إلى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة جعل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طال ما أذى المسلمين بلسانه ، فخطب عمر في شأنه النبي ﷺ قائلا : دعني يا رسول الله أنزع ثيبي سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا .

فقال له النبي ﷺ : لا أمثل فيمثل الله في وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقامنا لا نذمه . وقد حقق الله ما أنبأ به النبي ، وذلك أنه لما توفي ﷺ وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا ونصحهم بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .

عقاب الله للمسلمين في أمر الفداء :

قرر النبي ﷺ بعد أخذ رأى أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يعاتب المسلمين على ما فعلوا ، ويشير إلى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا في الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا في إهداء المؤمنين واضطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لا يزالون يصرون على معاكسته ومكافحته ، رجاء أن يتمكنوا من حل جماعته ، والتعفية على أثره ، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ

أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَفْجَنَ فِي الْأَرْضِ ، يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ،
وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ . تَوَلَّا كِتَابَ مِنَ اللَّهِ مَبْنًى لِمَسْكُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابَ
عَظِيمٍ ﴿١١﴾ .

معنى هذا أنه ليس لنبي أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكفر من قتل
أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يمكنه الله منهم ، ليعودوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه ،
فيفذلوا جهدهم للثأر من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذى عرف عن الإسلام أنه دين رحمة
وصحاحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق في تسامحه وسعة صدره كل ما
عرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله في
هذا الموطن يعتب على المسلمين أخذهم بمبدأ الرحمة في معاملة رجالات قريش الذين
أسروا في معركة بدر ؟

نقول : إننا نخالف المعترض ونرى في هذا التشديد أروع مظهر لإلهية هذا
الدين . وسنجلي هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الإسلامية التى يذكرها المعترض لم تكن قد نزلت بعد ،
وما نزل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الإسلام ، وتوالت المعارك بينه وبين
خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتل الأسرى قبل الإتيان في
الأرض ، وبين الأصول التى يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل يناقى الرحمة التى يجب أن يتصف بها
شرع إلهي .

وعلينا أن ندعوه ليتأمل معنا في أن قتال المسلمين لمشركي العرب كان الداعي
إليه كسر شرهم في معاكسة الإصلاح العالمى الذى هبوا لنصرته ، وقد ارتكبوا ضده
من ضروب الاضطهاد ما يناقى كل رحمة ، ويسجل عليهم كل وحشية ، فلا يكون

موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركوهم في مقابل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا إلى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود إلى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة في تدويخهم . فاللوم جاء مترتبا على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوثت أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لا يجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يذيقوهم وبال وحشيتهم .

وأما من ناحية أن في العتاب القرآني أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة إلى ضروب من التسامح يكسر بها حدة خصومه ، ويفل ما استطاع من غرْبهم . فإذا ظفر ببعضهم في إبان ضعفه ، فلا يبالغ في النكاية بهم تفاديا من أن يظهر بمظهر المتجبر ، فيضنن عليه نفوسا كثيرة ، ويحملها على الاستماتة في قمعه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيرا من رجالات أشهر قبيلة في البلاد العربية كان يقع من باقى أفرادها موقعا مؤلما للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلمس الأنصار والأحلاف للأخذ بالثأر ممن قتلوهم .

فجدد مدعى النبوة يفكر في هذا الأمر جيدا ، ويتقن حصوله جهده ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلبا فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والغلبة .

ولكن مجيء هذا العتاب يقلب هذه المدارأة رأسا على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهده استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شيء من التسامح قبل أن يشحنوا في أعدائهم . وهذه صراحة تحاف ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشأ حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة واثقة من مصيرها ، متحققة من مآلها ، لا يقفها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفي كل هذا دليل ضمنى على أن الاجتماع الإسلامى كان يتولاه ويربه الوحي الإلهى فوق العقل البشرى ، لأن العقل في مثل هذه الحالة يأبى أن يقف هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصمم نفسه على رءوس الشهاد بأنه فيما تسامح به

قد أثره عرض الحياة الدنيا على ما وُعد به من ثواب الآخرة .

فإن قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحي الإلهي المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذي اتخذ في شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحي لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الاتكالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الإسلامي قادرا على القيام بنفسه ، ومتمرسا على مكافحة الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحي لم يضطرب في سيره ، ولم يحترق في تصريف أمره .

وقد عرف أخيرا أن خير التربية هي أن لا تبالغ في حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تجر إليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصرف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ في تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيد في إكسابه الحزم والثبات ما لا يفيد ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعات الإسلامية قد تولاهم الوحي على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدّها بكل ما يُسمح به للبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدّها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاقّت وبال أمرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحي في ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحا لا يعرف في تاريخ البشرية له مثله ، ألم تتأد الأمة الإسلامية في سنين معدودة إلى ما لم تبلغه الأمم التي سبقتها في قرون كثيرة ؟ (٥) .

الأمور الخارقة للنواميس الطبيعية في وقعة بدر

تمتاز العصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي ، صاحبت الدعوى في جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنًا وأجل أثرًا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانشقاق القمر ، وما إليها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس ، أو مما يتأق توجيها إلى غير ما فهم منه ؛ ولكنني أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها في الأمم القرون العديدة ، والآماد الطويلة .

وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة ، على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تحليلها بالأسباب العادية ، حتى ولو بشيء من التكلف ، مسيرة لذهب المبالغين في التثبت ، والمحافظة على إقامة الدستور العلمي ، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لشلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة .

وقد أتيت بتاريخ وقعة بدر التي كان لها شأن عظيم في كسر شره أنصار الجاهلية ، والطائفة من خيالاتهم وكبرياتهم ، ولم أَلَمْ بما صاحب هذه المعركة من الأمور الخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتني التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المحسوسة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الكامل لتبين وجه إعجازها ، نأتى على الآيات التي وردت في شأنها من الكتاب الكريم . قال الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَآتَمَمَ أَدْلَتَهُ ، فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ

شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١﴾ . يذكر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم في موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبيد طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فيقبلوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القول إلى رسوله فقال : ليس لك من أمر تدبير العباد شيء ، فامض لما يوجهك الله إليه ، فإنه هو الذي يدبر أمر خلقه ، فإذا أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فإنهم ظالمون .

وقال تعالى في سورة الأنفال مشيرا إلى وقعة بدر : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ (قافلة التجارة أو جيش المشركين) ، وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُطِغِلَ الْبَاطِلَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوجِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَكَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ، وَلْيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَلِكَكُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ . إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تُعْودُوا تُعَذَّبْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أى بكتابه ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويزيل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب

(١) سورة آل عمران ، الآيات (١٢٣ - ١٢٨) .

(٢) سورة الأنفال ، الآيات (٧ - ١٩) .

كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بأن يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما جعل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله النعاس يغشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليزيقكم نعمة الأمن ، وأنزل لكم من السماء ماء ليروي ظمأكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويجليكم برباطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم إلى الملائكة أني معكم فثبتوا المؤمنين في الحرب ، سألني في قلوب الكافرين الرعب ، إلخ . وقد عدتم من وقعة بدر تفتخرون بعدد من قتلتموهم ، والحقيقة أنكم لم تقتلوهم ، ولكن الله هو الذي قتلهم ، وما رميت يا محمد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قاتلا شأهت الوجوه ، ولكن الله هو الذي رمى ، وقد امتحن الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أى إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر (الكلام مسوفى على سبيل التهكم) ، وإن تقلعوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمحاربة المؤمنين نعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغنى عنكم فتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذى يتأمل في هذه الآيات يدرك منها أموراً لا يمكن التردد فيها :

(أولها) أن المسلمين في وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم في كثرة عدده واكتمال عدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والإنسان لا يشعر بالذل إلا في حالة العجز واليأس . فإذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم في الوحي ودخلهم الشك في مصدره .

(ثانياً) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الإعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إلى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ . ولو كان الأمر ذلك اليوم عادياً لا يتطلب العون الإلهي المباشر ، لكان في ذكر المدد الملكي هنا ، توهين للدعوة الإسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

(ثالثها) أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم مُنحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ . ذلك أن رجلا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبي ﷺ عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصاء ورمى المشركين بها قائلا : (شأهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه إلى أنفسهم ، وأمرهم بإسناده إلى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا في تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بعرب الجاهلية ، لكان تأثيره في قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الإيمان بصحة الإسلام ، ويوقر في صدور الناس أنه يعتمد على الإيهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والأنصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فإن هذه الواقعة جديدة بأن يكون لها من الأثر في تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالإسلام ، ما غزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوّهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء في أشعارهم . قال أبو تمام الطائي في بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم ابن الرشيد عقب انتصاره العظيم على امبراطور الرومان تيوفيل سنة (٣٢٣) للهجرة :

ما بين أيامك اللاتى نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

* * *

وإذا قلبنا هذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الإعجاز فى هذه الواقعة يتجلى بمرجحاح من نوع آخر . ذلك أن النبي ﷺ لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فإذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالأسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فإن مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب

من أهـب آليـة ، كالأسلـحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطـع والحفر والتـحطيم ، وأهـب للتموين والزحف والحصار والمواصلات .

وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبي ﷺ أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله في التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبي حين نذبتهم أنهم قد يدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك إلى موقف من التردد أدركه النبي ﷺ وعمل على ملاقاته ، وهذا الإقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد في جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نيبا ، والثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحي ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته في الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجبة :

(أولا) تفوق العدو في العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر في عرف الحربين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل في الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ما ليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لخصيمتها .

(ثانيا) تفوق العدو في الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة في الحروب كما لا يخفى .

(ثالثها) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه في عوامل الغلب .

فالقائد الذى يدفع بحيشه في أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبي ﷺ : « أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » ،

وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني به » ، قلنا إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان يريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقرب داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشرع فى حرب استتصال ؛ ولو هو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلق فلجأ ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه إلى منازلها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : ﴿ فَلَا تُخْسِنُ اللَّهُ مُخْلِفٌ وَعَلَيْهِ رُسُلُهُ ﴾ ^(١) . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث الخطيرة .

رد شبهة فى هذا الموطن :

قد يقول معترض : ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . فإذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، فهنالك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فإذا اتفق لقائد أن

(١) سورة إبراهيم ، من الآية (٤٧) .

يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال ولم يُبَلِّ ، لأنَّ عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم في الكربة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة إزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العتد العادية .

نقول : إن هذه الشبهة في ظاهرها قوية ، لاستنادها إلى أصول بسيكولوجية ، ولكنها في الواقع شعزية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكيمية ، فإن الأصول النفسانية التي تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على اليثين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبي عهد بالإسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله في المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم ببسيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة في القتال التي يفترض المشتبه وجودها في جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذي يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شيء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضتهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم .

ولو أضفت إلى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيههم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما إلى زيادة عدد حامياتها ، وإما إلى الإقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستجلبوا في إبادة هذه الطائفة التي قامت عقبة في سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، في مدينة مبنية ، ليموتوا في حجرات دورها جياعا عارين ، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا

بتأمين الطرق ومسألة الجماعات التي تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم .
 إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل
 الاستبسال والاستتانة في القتال ، وإذا أضفت إلى ذلك تفوقه في العدد والعدد ،
 أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من
 الآيات في تلك البيعة التي كان أهم ما يحرك الحمم فيها إلى حدود التضحية ، عامل
 الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذيادة عن المبادئ .
 ناهيك أن تلك البيعة التي كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ،
 لم تنشأ فيها حرب واحدة في مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب
 على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها في هذا الركن المنعزل من
 الأرض .

فإن أصر المعارض على شبهته ، قلنا له : إن نضج العاطفة الدينية طفرة إلى
 حد تضحية النفس في سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية
 طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التي نحن بصدددها ، وأدل
 على المدد الإلهي منها . فعلى أى أساس صحيح يستطيع البيكولوجي أن يعلل انتصار
 المسلمين على عدوهم في بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر للإعجاز فيها (*) .

★ ★ ★

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قریش ببدر

قد تمر على المجتمعات في بدء حياتها حوادث تؤثر في وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعي الذي يتم بعد مكابذتها للأطوار التي يستدعيها الاجتماع في أدواره المقررة في قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجري مكة ، ومؤمني قبيلتي الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب في وثنيهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفعليلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهي لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشؤون ليس في اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا تكفي في تكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبي لا يتوقف على الاندماج في جماعة . وقد عاش المسيحيون بعد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين في بلاد متباعدة ، وبقي اليهود أكثر من ألفي سنة مشتتين في الأرض ليس لهم دولة . فكان لا بد لأجل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع في الطائفة التي اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفعليلها آمادا طويلة .

فإذا كان علي محمد ﷺ ، لأجل أن يصل إلى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التي تتكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذي تتبعه الطبيعة في تأليف الجماعات ، فأنى له أن يوجد لها الزمان الكافي لترسيخ نتائجها في نفسية الجماعة ، وهو شرط لا بد من توافره في حياة الجماعات ؟

اللهم إن هذا من المخالات العلمية ، وهو في البلاد العربية التي لا يوجد فيها

من عوامل الاجتماع إلا ما يكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وُجدت إلى مبعث النبي ﷺ ؛ لا لنقص في قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافر عوامل تألفها . فانتداب محمد ﷺ للإتيان بمحال في تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفرادها ، ولم يطف في رأس عبقرى من عباقرته من يوم وُجد العالم إلى يومنا هذا .

لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا إلى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يشينا عن النظر في الوسائل التي تدرع بها محمد ﷺ ، تحت إرشاد الوحي ، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وَجَّه النبي ﷺ همته إليه ، أن جعل للطائفة التي اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هي ، وتكفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبید أو تفنى في جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التي عينها النبي ﷺ للجماعة التي يرأسها أن تكون نواة الدين الذي شرع لإصلاح جميع الأديان ، وأن تُحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفى في تكوين أمة ، ولا في إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروفا الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة في حاجة إلى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول إلى هذا كله إلا بانشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التي توجبه ؟

هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرى بالبيئة التي تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعى في توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد في البيئة التي ظهر فيها لما كان في عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تحليل نجاحه

بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدر كم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة في شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله إلى يثرب حتى كانت للإسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والإنسانية . وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فئتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل السماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال إلى حال آخر ، لا صورتين وهيتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدتهما ولم تترك أثرا .

فإذا كان في تكوينهما على خلاف المسنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فإن في بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البناء حيث أراد ، لاحماً بعضها ببعض بالملاط ، فيشيد منها قصراً على النظام الذى وضعه من قبل . هذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والمساك الذى يجمع بينها مؤلف من رُبط معنوية تشترك في تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنظم جميع هذه العوامل معات الألوف من الآحاد في وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الفقام التفكك ، فلم يعم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطراباً لا اختياراً في آن واحد ، كما يتحرك الجسم فتتفاعل جميع أعضائه في اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضواً لِمَ تحرك .

فخيل كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين إلى هذا الضرب من التكافل مع تحالف آحادها في أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فإذا رأيت أمماً قائمة ولم يصادف قادتها أثراً من الحوائل ، فما ذلك إلا

لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعي يجري على أدوار متعاقبة ، في آماذ طويلة ، تنفقها الطبيعة في التوفيق بين هذه المتناقضات ، لا بصبها في قالب واحد ، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاوني يحول تصادمها الضار إلى تكافل مفيد للجماعة كما هو مشاهد في كل جماعة قائمة .

فهذا العمل الطبيعي البطيء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من يقات مختلفه ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر إلى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد من غير الطريق التدريجي التي تسلكها الطبيعة في إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهي لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن الله نبه العقول إلى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

تأمل في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، تجد فيه إشارة صريحة يدرکہا أولو العلم اليوم على النحو الذ ذكرناه هنا . فإن الذي يؤلف القلوب ، ويوحد بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هي العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التي تزول آثارها بزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز في عمل النبي ﷺ واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحس من ذلك العامل الخفي الذي قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف إلى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل في الأدوار التي تحصلها للنفس . ودخولها في تلك الأدوار في سنين معدودة لا يكفي لإيجابها ، فلا بد من مرور آماذ طويلة عليها ، وتكرر حلوثها لتتبع النفس لقبول آثارها ، والقيام على

(١) سورة الأنفال ، الآيات (٦٢ - ٦٣) .

آساسها^(١) . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشيعها غشرة التغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعُجب القوى المتصدر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد ﷺ . فإذا ألانت النبوة الحديد ، وفجرت الماء من الصياحيد^(٢) ، وأجبت الموق بعد أن احترمتهم المنون ، فإن إلآة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، مثلها فى تاريخ الأجيال السابقة ، تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه .

ذلك العامل الخفى الذى أخفينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفثه محمد ﷺ فى رُوع جماعته^(٣) ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتكيف به نفسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه .

هذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للنقض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت إلى الإيمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ، لأن الإيمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثة المتأصلة ، فيسوقها إلى الأغراض التى تُوَجَّه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها إلى أى الوجهات أراد .

(١) آساس جمع أسس (بفتحين) وهى بمعنى الأس (مثلثة) والآساس . وجمع الأس إساس (بكسر الأول) وجمع الأساس أسس (بضتين) .

(٢) الصخرة الصيخود هى التى لا تعمل فيها المعاول .

(٣) الروع (بضم الراء) : القلب والذهن والعقل . والروع (بفتحها) : الفزع .

نقول : مهلاً مهلاً ، فإن في طي هذه المسألة أمراً يعتبر في أرفع درجات الإعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا (الإيمان) ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قُدماً في التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبي أن ييثه في قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعاً مطلقاً ، بحيث يصبح منقوشاً في سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايح ما كانوا عليه من ناحية من النواحي ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولأمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

- كانوا معّدين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد .
- كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .
- كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم إلى حكم العقل .
- كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .
- كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .
- كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتتور عالم الروح .
- كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .
- كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .
- كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم .
- كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالإيمان الذي يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لابسها من الأصول التي صارت بتوالي توارثها في الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولاً تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كياناً جديداً لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر إليه نظراً إلى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترئين له . لأن مثل هذا (الإيمان) الذي يقلب كيان النفس ويحولها من حال إلى حال ، لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق

الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى في أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده في الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد يبح صوت الهداة والمرشدين في كل زمان ومكان من الدعوة إلى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعارضون : نعم لأن المدعويين لا (إيمان) لهم بهؤلاء الدعاة .

نقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور إلى مسألتنا الأولى وهي الإيمان . فما الذي قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه في القلوب هذا الإيمان الراسخ الذي تمكن به من صب نفسية أمة برمتها في قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟

قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد إلى بث (الإيمان) بنبوته في هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك إلى التحكم في تكيفها ، حتى حولها من حال إلى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل إلى زعامة العالم كله في سنين معدودة ؟

المسألة خطيرة ، خطيرة إلى أبعد حدود اليأس . وهي في هذا المأزق تصبح أقرب إلى الحل منها وهي على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خبيثة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباحة لكل دناءة ورجس . والذي يستيخ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا في الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ؛ ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمية ، تتأدى في سنين قليلة إلى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مكنويا ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحققة تثمر ثمراتها في الجماعات التي تحمل بها ، دون أن تستطيع أية قوة

صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ^(١) .

نعم إن النبوات تلاقى عقبات كأداء في طريقها ، ولكنها تتغلب عليها في النهاية كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنظَرْنَاهُمْ نُصْرَتَنَا ، وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٢) .

الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الإعجاز (بإيمان) راسخ بنبوة محمد ﷺ ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش في صميم روعهم من الأصول الأدبية ، والمبادئ الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة في آماذ طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق في علمه من الانقلابات العالمية التي كان العالم في أشد الحاجة إليها . بقى علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت في الأدوار التي سبقت إليها تحت هداية الوحي ، وقوامة خاتم المرسلين محمد ﷺ ، والله ولى التوفيق ^(*) .

(١) سورة المجادلة ، الآية (٢١) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (٣٤) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٩ هـ .